المقتبس

ظلامات عصر الظلمات

كل من القى نظرة اجمالية على تاريخ القرون الوسطى والقرون الحديثة في هذه البلاد يرى ان القرون الاخيرة اي القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر كانت اشق العصور على هذه البلاد لاحكم فيها الا للقوة لاعدل يحميها ولا علم ينهضها وخصوصاً في الايام التي سادت فيها حكومة الاقطاعات وساد معها جيش الانكشارية (يكي جري) او العسكر الجديد فكل ماتراه عينك في دمشق مثلاً من بيوت ضيقة متلاصقة وازقة ملتفة واتجاه لامنفذ لها وقصور ومدارس في الضواحي خربة انما نشأ من اعتداء هذا الجيش على افراد الرعية المسكينة وما تجاسر ايديهم يتناوله الظلمة من الحكام ويصادرونه ويستصفونه حيثما مربنا لاوازع يزع ولا ادارة منتظمة : احكام في المظالم مسمطة وقواعد في السياسة مسلطة وآراء في جلب المصالح ودرء المفاسد مخلطة مغلطة .

ولقد وقع الينا مخطوط تام [1] اورد فيه مؤلفه بالعرض في جملة قصائده بعض ماشاهده في عصره من الكوائن فاحببنا نقلها الى هنا دلالة على الاقضية التي قررناها آنفاً والكون تتمة لتاريخ هذه الحاضرة . وهاك ما اورد في هذا المعنى بمناسبة مدحه لاحد حواشي سليمان باشا ابن العظم والي الشام اذ ذاك قال : « واتفق لهذا الممدوح قصة من غرائب القصص وهي انه سعى في خلاص جماعة من اهل حيه وغيرهم من القتل وتداعم بنفسه ودافع عنهم عند والي الشام بما يستطاع وخلصوا من الهلاك بسبب مدافعته

---

(1) هو ديوان النفائح والانوار اللوائح لمؤلفه محمد الحافظ النجار من اهل القرن الثاني عشر وهو من خزانة كتب عادل بك الزاملي احد اعيان هذه الحاضرة وفضلائها

عنهم وفر قوم من دمشق خوفاً من واليها واوقع الوالي القتل والنهب بقوم آخرين ظفر بهم في دمشق ثم ان الوالي خرج من دمشق اميراً بقافلة الحج وخرج معه هذا المذكور حاجاً ومؤدياً ما عليه من خدمة السلطان في طريق الحاج فلما وصل الامير والحاج الى المزيريب رجع اولئك النفر الذين فروا من الوالي بعد ان ارسلوا مكاتبة الى جيران هذا الذي سعى في خلاص اكثرهم من القتل تشتمل تلك المكاتبة على انهم في ليلة كذا يرجعون ويدخلون دمشق بقصد انتهاب دار هذا المذكور وقتل من يظفرون به من اهاليه وقراباته فاجابهم كل من كاتبوه بذلك بالسمع والطاعة وانهم سيكونون لهم عضداً وعوناً على ما بيتوا عليه وارادوه من السوء بهذا الامر الذي عزموا على فعله فلما كانت الليلة الموعودة دخل اولئك النفر الفارون دمشق ومعهم نفر من النصارى والدروز والاشقياء اعداء الدين والمسلمين ولما وصلوا الى القرب من الدار المقصودة بالسوء تلقاهم الناس بالترحيب وتحزب معهم غالب الناس من اهالي ذلك المحل حتى بلغوا العدد الكثير فلما قربوا من الحي ترفع اهله في منازلهم وفر من كان في الدار المقصودة من كبير وصغير طالبين النجاة بانفسهم فلما وصل اولئك النفر المغضوب عليهم ومن معهم من المنافقين الذين انضموا اليهم كسروا الابواب وهجموا على الدار وانتهبوا وضربوا وافسدوا افساداً ما سمع بمثله واصبحوا ماكثين في دمشق لا يهابون احداً فخرج اليهم نائب الوالي والاعيان والموالي فقاتلوهم بالحرب والضرب وقتل جماعة وجرح آخرون ورجع النائب ومن معه منهزمين ومكث اولئك النفر الاشقياء بدمشق ريثما بلغوا اربهم من سلب واغتصاب وتهكم وتحكم لا يردهم عن ذلك احد ولا يهابون احداً ....»

قال : « ولقد حقق الله تعالى جميع ما نطقت به هذه القصيدة من الظفر باولئك النفر المفسدين والطائفة المعتدين المارقين من الدين على يد وال آخر غير ذلك الوالي المذكور في ترجمة هذه القصة قد عينه السلطان وولاه دمشق لاجلهم بسبب فتنة اضرموا في الشام نارها واثاروا غبارها وافسدوا فساداً عظيماً فقتلوا وحاربوا واستلبوا وانتهبوا واحرقوا الدور والاماكن وحركوا من الشرور كل ساكن وتجاهروا بالفواحش وارتكبوا كل امر يخالف الدين الحنيف واعلنوا الفطر في شهر رمضان على رؤوس الاشهاد وتعطلت الاسواق والمعاملات بسببهم في دمشق قريباً من سنة لا تقام جمعة ولا يسمع اذان ولا يفتح جامع ولا يمكن احداً ان يخرج من منزله لحاجة ولا لغيرها لفسادهم وافسادهم وتعديهم على الخاص والعام وانما كان سبب تمكنهم من ذلك عدم وال في الشام فان

والياً كان قد خرج منها الى الحج اميراً ففي رجوعه من الحج عارضه العربان في اثناء الطريق ففر منهزماً بعد ان جرحوه وانتهبوا قافلة الحاج بأسرها بعد ان كانوا انتهبوا جردة الحاج وقتلوا من الجردة والحاج الجم الغفير . . . فهذا كان سبب تمكنهم من اقامة الشرور والفتن بجماعتهم بعد ذلك هذا الوالي المذكور ثانياً وقتل منهم من قدر عليه وفر منهم من فر منهزماً وسلب دورهم ومتاعهم واثاثهم ووجه الغرامات وتركهم اذل من اليهود واحقر من الذباب واوهن من الكلاب ولحق دمشق واهلها من ذلك الوالي وحاشيته وجنده اسوأ السوء بسبب انتقامهم من اولئك الاشقياء وانتهبت غالب المنازل في دمشق وقتل خلق كثير من البرآء وتوطن هذا الجند الكثير من دور الناس واخرجوا اهلها منها عنفاً وجبراً وقسراً وظهر من اتباع هذا الوالي ما انسى اهل دمشق ما كانوا فيه من الضنك والشدة قبل قدوم هذا الجند اليهم . . . واعقب مجيء هذا الوالي الى دمشق في دمشق ضيق وشدائد وشرور وظلم وجور وعسف وتعد واحتقار لاهل دمشق من شدة غلاظتهم وغلظتهم وكان فيهم من النصارى والرافضة ما لا يحصى عدده وختم ذلك بزلزال في دمشق ونواحيها ورجفات زعزعت الجبال وردمت الدور في غالب الاماكن وهدمت كثيراً من المساجد والمعابد والمنارات وعند كتابتي لهذا المحل كانت مكثت في دمشق خمسة واربعين يوماً وقتل اذ ذاك تحت الردم خلق كثير وخرج غالب الناس من منازلهم وتركوها خالية وتوطنوا البساتين والجبانات . » وقال في مكان آخر : « قد تقدم في هذا الديوان ذكر بعض ما وقع في دمشق من الفتن والمحن والشرور والغلاء والظلم وغير ذلك مما مر وتقدم وكل ذلك قبل تاريخ سنة الف ومائة وسبعين وها انا اذكر ما وقع واتفق لدمشق واهلها في سنة سبعين وما بعدها من المظالم والحروب والازمات والزلازل والرجفات وما تأتى من ذلك من خراب الدور والمنارات والجوامع وما كان في تلك الايام من ظلم وجور وعسف الى ان تداخلت الدواهي والبلايا بعضها في اثر بعض حتى كان آخر ذلك الطاعون الذي اتى ما كان قبله مثله في الادوار فاهلك الابدان وشيب الولدان

وهنا اورد المؤلف ارجوزة مطولة في وصف تلك المحن قال فيها :

لما تقضت عشرة   من صومنا محررة
قامت البغاة فجرة   في شامنا المطهرة
واضرموا نار الفتن   واظهروا فيها الاحن

واوقعونا في محن   وكدروا منا الفطن
ومذ رأيت الفتنا   ثارت وقامت علنا
وكل مكروه دنا   وكل سوء وعنا
ناديت ربا ذا منن   منه الفروض والسنن
وجنح ليل قد سكن   وفيه قد فر الوسن
وقلت قول المرتجي   وطالب للفرج
وهارب من حرج   يا من اليه الملتجي
يا دافع البلاء   يا عالم الخفاء
يا سامع الدعاء   يا كاشف اللأواء
خلص الانام ظلموا   من بطش قوم ظلموا
عن الرشاد قد عموا   ومن سداد حرموا
ومحق اشرارا   واهلك الاشرارا
وايد الابرارا   وسدد الاخيارا
وهب ربوع الشام   من زمرة طغام
وعصبة اللئام   خلوا من الحرام
وفرقة فجار   طاغية اشرار
قد ارعبوا الدراري   بأفظع الضرار
لم يرحموا صغيرا   لم يسمعوا كبيرا
لم يتركوا نقيرا   نهبا ولا قطميرا
واكثروا الفسادا   واذهبوا العبادا
واخربوا البلادا   واحرموا الرقادا
وحللوا الحراما   وافطروا الصياما
وقهروا اليتامى   وفضحوا الايامى
واظهروا الاسرافا   وقتلوا الاشرافا
وضيعوا الانصافا   واكثروا الخلافا
وشتموا الاعيانا   وكذبوا الايمانا
وهدموا الاوطانا   واورثوا الهوانا

وضيعوا الأمانة   وشرعوا الخيانة
وحرموا الديانة   وطرقوا الصيانة
وغيروا الشكاية   وأبطلوا الأحكاما
وأكثروا [illegible]   والفتنة الكبرى
فعند ذلك [illegible]   [illegible] الرابع
وقام سوق [illegible]   الحاسد والمخادع
وقلموا [illegible]   وأظلموا [illegible]
وأوقعوا [illegible]   وظلموا [illegible]
وأخفوا [illegible]   وأخفوا [illegible]
وأكثروا الفاحشا   فقربوا [illegible]
وعطلوا المنارا   وهجروا الأذكارا
وهدموا الأسوارا   واشتروا [illegible]
وصدوا [illegible]   واستكثروا الأوزارا
والتموا الشيطانا   وعادوا السلطانا
فيا له كم حاكم   من ظالم وجاهل
وفاحش وفاجر   وآثم كالساحر
وكل سوق [illegible]   وكل يوم [illegible]
فقام سوق الأسرا   ويا له [illegible]
[illegible] فيها سنة   [illegible]
فزلزل [illegible]   [illegible]

والأرجوزة طويلة وهي إلى هذا الحد وقفت إلى غير [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] سنة ألف ومائة وسبعين إلى دمشق [illegible] من طائفة الأعراب والأكراد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إلى دمشق من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

في دمشق بين طائفة القول (1) وطائفة الينكشارية من مضي عشر ليال من شهر رمضان والقول اذ ذاك محاصرون في القلعة فلما اقبل المنهزمون من الحجاج الى دمشق خرجت طائفة الينكشارية يتلقون المنهزمين والمنهوبين من الحجاج فكل من ظفروا به وكان من القول قتلوه واخذوا مايجدونه معه من متاع اودابة او غير ذلك حتى انه قد بلغني انهم ظفروا باحد القول خارج دمشق فقتلوه شر قتلة واخذوا ما كان معه ثم احرقوه بالنار واستمرت الشرور والفتن قائمة في دمشق وهي اذ ذاك خالية من وال حيث ان امير الحاج لما انهزم في اثناء الطريق استمر منهزماً ولم يدخل دمشق فبقيت بلا وال ولا حاكم ·

ولما بلغ السلطان مصطفى اخبار ماتقدم ذكره من انتهاب الجردة والحج وما في دمشق من الفتن والمرج وان طائفة القول محاصرون في القلعة ساءه ذلك وعين عبدالله باشا الشتجي وامره على دمشق وعلى الحج وانه يستقصي الخارجين عن امره والمتعصبين على القول ، يقتلهم ويرسل برؤوسهم الى الباب العالي والزمه ان يباشر اصلاح طريق الحاج بما امكنه فجاء عبدالله المذكور والياً على الشام واعمالها واميراً على الحاج ودخل دمشق في اوائل سنة احدى وسبعين وجاء معه بجند الغالب منهم نصارى واعاجم · فلما قرب من دمشق تحزبت الينكشارية وتجمعوا في جهة الميدان والقبيبات والحقلة ووقع منهم اساءة ادب في حق الوزير وجنده وانتهوا من نزل منهم بالقرب من محلهم الذي تحصنوا فيه ثم بعد يومين من ذلك نزل من الينكشارية نفر الى جهة باب الجابية وتلك النواحي فظفروا باثنين من الجند فبطشوا بهما فقتل احدهما وجرح الآخر فبلغ الخبر الى الوزير فامر من عنده من الجند ان يذهبوا الى المحل الذي فيه الينكشارية ويقتلوا من يقدرون عليه ويأسروا من قدروا على اسره فخرج الجند متوجهاً الى جهة حارة الميدان وتلك الجهات فلما وصلوا الى وجوه المتطرفين وتوجهوا فرت طائفة الينكشارية طالبين البراري والقفار فتبعهم نفر من الجند ساعة من نهار وقتلوا منهم عدداً قليلاً ورجعوا عنهم واستمر اولئك هاربين ثم ان الجند اخذوا في قتل من رأوه كائناً من كان وشرعوا في النهب والسلب فانتهبوا غالب المنازل والحوانيت من حدود الحقلة الى باب الجابية واستمر ذلك من الضحوة الكبرى الى وقت العصر والجند يأتون بالرؤوس الى حضرة الوزير فقتل في ذلك اليوم من الرعايا العدد الكثير وانتهب المتاع والمال الوزير الى ان دارك

---

(1) هم عسكر « القبو قولي »

تعالى باللطف بعد أن قتلوا العدد الكثير من الرعايا ظلماً، وعذبوهم ووضعوا القيود والأغلال في أعناقهم وأرجلهم، واستاقوهم، ولما بلغ الوزير أن هؤلاء العشارية والأعاجم حمل منهم التعدي في القتل والنهب خرج إليهم ولامهم على ذلك وأمرهم بالكف عن ذلك، وجمع ما قدر على جمعه من النهب ووضعه في المساجد، وأرصد لذلك من يحرسه حتى المنهوبين أن يأتوا وينظروا في الأمتعة التي [illegible] من أمتعتهم، فلما [illegible] ذلك حصلوا على عشر معشار ما نهب من متاعهم وأموالهم، ولما سلط الله تعالى [illegible] ثم [illegible] العشارية والأعاجم الذين هم من جند هذا الوزير يحكمون في أهل دمشق بالسلب والاستحلال والشتم والقذف والضرب والقتل حتى شاعوا الفواحش وجاهروا بإظهار شرب الخمر وحتى تمادوا إلى أن يخرجوا أهل المحل من منازلهم ويسكنون فيه، وكان الإنسان في تلك الأزمان لا يأمن على نفسه إذا خرج من منزله بعد الغروب ومتى خرج أصيب بنفسه أو ماله، وهذا [illegible] وكله هو الذي أشرت إليه [illegible] الأسيرة المقتضبة من الشكاية مما وقع في دمشق من الرزايا سنة إحدى وسبعين بسبب ظلم من [illegible] النزول والتكشارية من الفساد والإفساد ثم بسبب ذلك ما وقع بعده من [illegible] العشارية والأعاجم الذين هم من جند الوزير المذكور سلط الله تعالى الزلازل والرجفات [illegible] في المنازل والجوامع والمنارات ومات تحت الردم خلق كثير، وقيل [illegible] سكن [illegible] الرجفات والزلازل أرسل الله [illegible] على الطاغين فأهلك البيوت وأحرق الزروع وقلت الثمار وكثر العبث».

وقال بعد أن مدح [illegible] سبعين ومئة وألف: «وقد كان أهل دمشق سنة [illegible] الرحيل ونهاية الرزق والقلق من جهة الحاج من شر الأعراب الأشقياء فهاماً على [illegible] منهم من الشر في العام الذي قبل هذا العام، وكان الرحيل الواقع من أهل دمشق في محله حيث أن العرب [illegible] في التعدي والجرأة والعدوان وسلب الأموال وتكدير الأحوال لكن الله لم يقطع من [illegible] الحاج الذي هو [illegible] السلطان [illegible] سبب شرهم [illegible] العسكر [illegible] من جهة السلطان [illegible] الحال [illegible] مرادهم [illegible] الأشقياء عليهم [illegible] الأمر [illegible] الحاج رجع [illegible] بعد أن [illegible] العرب [illegible] الحاج [illegible] الله [illegible] سبحانه وتعالى [illegible] من [illegible] الأشقياء [illegible] وقت [illegible] بعد [illegible] بالمدح

ايضاً فقد كان الناس قبل هاته يشكون من قلة الغيث فلما استهل اغاث الله عز وجل العباد واحيا البلاد والا فان الدواهي الواقعة فيه وفي ايامه بدمشق وقراها لم يسمع بمثلها من فساد الجند وافساد العساكر وظلم رئيسهم وجور حواشيه وعسفهم . »

وعاد المؤلف فكرر احوال ما وقع سنة سبعين ومابعدها وقد دام ما وقع من اذى الجند السابق والجند اللاحق الذي جاء مع الوالي الجديد من عشر ليال من شهر رمضان الى جمادى الاولى و « القول مختشرون في قلعة دمشق والينكشارية ومن تبعهم من الحشرات حول القلعة والحروب قائمة على ساق وقدم وقد اخرج الجند الجديد او بعض الناس من دورهم وتوطنوها ومع اختطافهم لبعض النساء والغلمان جهاراً من غير مدافع لذلك ولا مانع حاكمين على جميع اهل الشام بالكفر وبانهم قوم يزيد مصرحين بذلك »

هذه نموذجات من عصر الظلامات والظلمات والكتاب نسخة كتبت بقلم مؤلفه وشعره متوسط حسن بالنسبة لعصره عصر الانحطاط في كل شيء كتبها في ذي القعدة سنة الف ومائة وثلاث وسبعين

◆

الالفاظ السريانية في العربية العامية

اللغة السريانية من امهات اللغات السامية وهي من اصول اللغة العربية ولو بحثت في اصول الالفاظ العربية لرأيت بعضها سريانياً في الاصل كما دخل اليها الفاظ كثيرة من العبرانية والحبشية والفارسية على نحو ما حققه المحققون من الباحثين في اصل اللغات .

كان للسريانية شأن عظيم حتى قال بعضهم ان السريانية كانت لسان آدم ابو البشر وتعدى بعضهم فادعى ان لسان اهل الجنة السريانية وذهبت (١) عصابة من العلماء الى ان السريانية اصل لغات الآدميين بدليل ماورد في اسفار موسى بن [illegible] تقرب كل القرب من الالفاظ السريانية معنى ومبنى وعلى كل فهي بكر لغات النوع الانساني وهي من اعرقهن في القدم واول من انطلق بها لسانه على مانعهد ارام بن سام فتناقلها الآراميون اخلافه ممن اطلق اسمهم حيناً من الدهر على السوريين او السريان الذين عرفوا

---

(١) الدوالي او بقايا اللغة السريانية في اللغة العامية العربية لمؤلفها القس يوسف حبيقة البسكنتاوي بمطبعة الارز في جونية سنة ١٩٠٢ والطبعة الثانية سنة ١٩٠٤ وهي جزآن صغيران